٨ الزمن

obeikandl.com

obeikandl.com

الزمن

ناموس عظيم وعجيب يبدو أن سره لم يأذن الله له بالظهور بعد.

ما طبيعة الزمن؟

سؤال قد يبدو سخيفاً لكثير من الناس، فقد لا يرى السواد الأعظم من الناس في هذا الأمر ما يدعو إلى التساؤل، غير أن المتتبع لتاريخ العلوم والحضارات سيمر دون شك على الحيرة الكبرى التي واجهت المتأملين في هذا الناموس العظيم من فلاسفة ومفكرين.

تعرض الفلاسفة الطبيعيون لهذا الموضوع، وربطوا ماهية الزمن بالحركة وبشكل أدق بعدد الحركة وأنه يقاس بالحركة العامة للكون، ثم جاء أرسطو، فتحدث بشيء من التفصيل في كتاب الطبيعة عن إشكالية الزمان، غير أنه ارتكز في حديثه على ارتباط الزمان بالحركة، وينقل الدكتور عبدالرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية عن القديس أوجستين أنه كرس لمشكلة الزمان صفحات جميلة في كتابه (الاعترافات) وينقل لنا هذا النص:

«يبدو لي أن الزمان امتداد، ولكن امتداد ماذا؟ لا أدري! أللروح... ماذا أقيس حقاً؟ يا إلهي، حينما أقول مثلاً: هذا الزمان أطول من الآخر بوجه عام أو بوجه خاص، إن هذا الزمان ضعف الآخر، إنني أقيس الزمان أعرف ذلك، ولكن لا أقيس المستقبل؛ لأنه لم يأتِ بعد، ولا الحاضر؛ لأنه آن، ولا الماضي؛ لأنه ليس حاضراً بعد، فماذا أقيس إذاً؟..إلخ» .

دليل واضح على الحيرة.

obeikandl.com

ومع نيوتن أشـهر علماء الطبيعة في التاريخ البشري، الزمان مطلق، وهو الزمان الحقيقي الرياضي، وهو قائم بذاته، مسـتقل بطبيعته غير منسـوب إلى شيء آخر، يسير باطراد، وقد وضع برجسون الذي كرس لمشكلة الزمان بحوثاً كبيرة تميزاً جميلاً وحادًّا في الوقت نفسه، بين الزمان والمكان، ترجمه عبدالرحمن بدوي على النحو الآتي:

الزمان يعني	المكان يعني
المدة الحقيقية	الامتداد
الكثرة الكيفية	العدد
اللاتجانس	التجانس
التوالي	المعية، التتالي
الكيف	الكم
التغير	الثبات
البطون	الخروج
الاتصال النفسي	الانفصال
اللاممتد	الممتد
النفوذ المتبادل	عدم قابلية النفوذ
التلقائية، الحرية، التطور الخالق	الضرورة
الشعور	الآلية
الروح	المادة

وفي اعتقادي أن إحدى أبرز المحطات في تصور مفهوم الزمان هي تلك النظرية التي تعرف بالنسـبية في فيزياء آينشـتاين، ومن تتبع الإرهاصات الكبرى التي سبقت ظهـور هذه النظريـة، وخصوصاً في القرن التاسـع عشر الميلادي يجـد أن الزمان كان حاضراً، وهو المشـكلة والحل في الوقت نفسـه، وعندما اسـتقر في ذهن آينشتاين (كما أثبتتهـا تجارب عدّة) أن سرعـة الضوء ثابتة، ولا تعتمد على حركـة الراصد كان لابد مـن التوجـه للزمان؛ للخـروج بحل مقبول، وبعـد معاناة رهيبة خرج آينشـتاين على

العـالم بمفهوم النسـبية، وأصبح الزمان على ضوء هذه النظرية نسـبيًّا وبشـكل أدق لم يعد مسـتقلاً بذاته، وإنما له ارتباط بالمكان، حتى إن بعضهم عدّه بعداً رابعاً في الكون مـع الأبعاد الثلاثة للمكان. وقدم لنا آينشـتاين تنظيراً جديداً يقول: (إن الزمن يتباطأ مع السرعة، وتخيل نفسـه راكباً على رأس شـعاع ضوئي، وافـترض أن الزمن يتوقف تماماً، عندما يسـير أي كائن في الكون بسرعة الضوء) ويتباطأ الزمن على هيئة معادلة رياضية مع السرعة، وقد أجريت تجارب سـاعات ذرية بالغة الدقة حملت في طائرات تدور حول الأرض، وأثبتت النتائج صدق فرضية آينشتاين، ومن هذا المنطلق جاءت معضلـة التوءمين اللذين مكث أحدهما على الأرض، وسـافر الآخر بسرعة قريبة من سرعة الضوء إلى أحد الأجرام السـماوية البعيدة جدًّا، وعندما عاد بعد خمسـين سـنة وجد أخاه التوأم قد كبر، وشاب في حين هو لا يزال في طفولته المبكرة. المهم في الأمر أن علماء الطبيعة الآن يتصورون الزمان بشـكل نسـبي، له ارتباط بالمكان، بمعنى أنه لا يوجد شيء اسـمه (الآن) لشـيئين منفصلين مكانيًّا، لا شك في أن مثل هذا التصور عسير على الفهم.

غـير أنـه حتـى الآن، فقد اسـتطاعت النظريـة النسـبية أن تصمد أمـام كثير من الظواهر الكونية، واستطاعت تفسيرها بنجاح.

ينقسـم النـاس في إدراك أثر الزمن على تصوراتهم للأشـياء وحكمهم عليها إلى ثلاثة أضرب:

الأول: لا يحسـبون للزمـن حسـاباً، ويجـزم أن حكمه على شيء ما لـن يتغير مع مـرور الزمـن، فيتعرض لقرار أو تـصرف قديم بالنقد والتقويم دون أي حسـاب أو إدراك لأثر الزمن، ولا يتوقعون أن يحدث تغير كبير في حكمهم على الأشياء مع مرور الوقت، وهؤلاء هم أعجل الناس في إصدار الأحكام وانتقاد الآخرين. (هذا القسـم يتأثرون كثيراً بـ «المنطق القديم» الذي سبق الإشارة إليه).

الثاني: وهؤلاء يدركون أن للزمن أثراً قويًّا على تصور الأشـياء، ومن ثم الحكم عليها، فيؤثرون تعليق أحكامهم على الأحداث السـابقة، ويبدون في غاية الحذر عند سؤالهم عن رأيهم أو حكمهم في أشياء مستقبلية.

الثالث: وهؤلاء أعطاهم الله القدرة على إدراك أثر الزمن والخروج برؤية صائبة عن مدى هذا الأثر، ومن ثم يحققون السـبق، سـواء في مشروعات تجارية أو قرارات إدارية، وفي الغالب ينتمي الساسة والحكماء وكبار رجال الأعمال إلى هذا القسم.

كنت مع زميل في مؤتمر منظمة العواصم الإسلامية بطهران عام ١٤١٨هـ وتمت اسـتضافتنا في أحسـن فنادق طهران، وخلال تجاذب أطراف الحديث في قاعة الفندق أخبرني هذا الزميل بأنه جاء إلى الفندق نفسه قبل عشرين سنة؛ ليشترك مع لجنة سعودية لشراء مبنى للسفارة السعودية في ذلك الوقت، وعندها سألته: كيف يقارن بين الحال آنـذاك والحـال الآن؟، حيث كانت زيارته قبل الثورة، ونحـن نجتمع الآن بعد مرور وقـت على قيـام النظام الجديد في إيران، فأطربتني إجابتـه المليئة بالحكمة، حيث قال:

كنت أنا في ذلك الوقت شخصاً مختلفاً، ويصعب علي الآن أن أصدر حكماً.

ومقولـة صاحبي تذكرني بالمقولة السـاخرة لـ «جورج بارنارد شـو» حين قال: الشـخص الوحيـد الـذي أعرف أنه يتـصرف بعقل هو الخيـاط، فهو يأخذ مقاسـاتي من جديد في كل مرة يراني! أما الباقون فهم يسـتخدمون مقاييسـهم، ويتوقعون مني أن أناسبها.

إحـدى أهـم دلالات النضج البشري تأجيل اللـذة، فالمعروف عن عظماء البشر قدرتهم العجيبة على تأجيل اللذة في مقابل التفكير الطفولي الذي غالباً ما يوصف بأنه (هنا والآن).

ما الذي نستطيع أن نفهمه من هذا؟ هل نستطيع أن نقول: إن العظماء يحترمون الزمن، ويعطونه فرصة للعبور والمرور، حتى تتحقق مطلوباتهم؟

تأمل الصبر، ما معنى الصبر؟ نحن نعلم أنه واحد من أعظم الصفات الحميدة التي يتحلى بها البشر، وتقرأ في القرآن الكريم أن الله عز وجل: ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بل هناك من يرى أنه قد كسر الإعراب في آية البقرة من أجل الصابرين في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

التعريف النمطي أو الكلاسيكي للصبر في موروثنا الإسلامي هو أنه نقيض الجزع، ويستشهد أنصار هذا التعريف بأسلوب المقابلة، كما في الآية الكريمة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، فهو إذاً حالة نفسية للإنسان يواجه بها الأحداث.

في اعتقادي أن الصبر أساساً مرتبط بالزمن، فكأن الإنسان عندما يصبر يحترم ناموس الزمن الذي لا بد أن يمر دون إزعاج، وهذا الناموس الذي هو الزمن لن يستأذن أحداً في المرور، وإنما الصابرون يتحملون مروره برضا واحتساب، في حين يكثر الجزعون من التسخط والاستدراك.

لاحظ أن تعريفنا للصبر، وهو السماح للزمن بالمرور دون ضجر يساعد على تفسير تفاوت بني البشر في حظهم من هذه الجبلة العظيمة، فأهل الصحاري أقل صبراً وأكثر انفعالاً من أهل الأنهار والبحار، أما قاطنو الجيوب الاستوائية فتكاد تجزم أنهم لا يعرفون الانفعال مطلقاً ولديهم صبر غير محدود[1]، هل يمكن أن نقول: إن مرور الزمن

(١) يظل السائق الإندونيسي ينتظر أسرة في قصر أفراح خمس ساعات دون ملل.

في المجتمعـات الرغيـدة يثمـر نفعاً، أما في إنسـان الصحـراء فلا جديد، ما جعل إنسـان الصحراء يتخذ موقفاً سـلبيًّا من مرور الوقت، هذا التحليل يسـتند إلى شـخصنة الزمن وعدّه كياناً مستقلًّا مفرداً بذاته.

هل يمكن أن نعرف الزمن بأنه إذن الله لحدث أو مخلوق بالتجلي؟!

يستفيد الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- من الضمير المتصل «له» في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أن الأشياء والأحداث كلها قد تم خلقها وإيجادها، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وإنما يأتي إذن الله تعالى لحدث أو شيء بالظهور.

تأمل:

«**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**». أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

obeikandl.com